يدفع من اجل ذلك ضرائب باهظة ويطالب السلطات بالحاح في تعميم هذه المظاهر من اجل « عصرنة » قراه بكل معنى الكلمة . وهم اذا كانوا يكرهون السلطات ويصبون غضبهم على رأسها — كما يقول الباحثان — فذلك ليس لانها تحاول تطويرهم ، بل لانها تدفع ، بكلتا يديها، عنهم هذه النعم. واذا كان الباحثان الاجتماعيان يعنيان بكلمة « مجتمع متقدم » علاقات اجتماعية متقدمة تتميز بحب الخير والعدل والحق ، وتدعو لسعادة الانسان ، فاننا لم نعرف شعبا فتح ذراعيه لليهود كما فتح لهم ذراعيه الشعب العربي في تاريخ تشتتهم الطويل . واننا بدورنا نسألهما : اين « التقدم » اليهودي من كل هذه العلاقات الاجتماعية المتقدمة ، أتراها قائمة والشعب اليهودي يعيش على ارض وفي بيوت وينعم بخيرات وطن شعب آخر ، يقيم في الخيام والاكواخ مشردا لاجئا يفترسه الجوع والمرض طوال اكثر من عشرين عاما ، بينما يرى على بعد بضعة كيلومترات قراه ومدنه وبياراته تطالعه صباح مساء شهادة عدل على بربرية الغاصبين ؟ ام لعل هذه النظرة للعلاقات الاجتماعية المتقدمة تعبر عنها سياسة بن غوريون المتجسدة بشعار « لا لاجيء ولا شبر ارض » . ام تراها تتجسد حاليا في سياسة دعاة « الضم الادنى » و« الضم الاقصى» لاراضي العرب في المناطق المحتلة ؟ ام تراها تتجسد بدعوى الصهيونية الصريحة كما جاءت على لسان دعاة « ارض اسرائيل الكاملة » ؟ ام لعل هذه النظرة تتجلى في افساد المجتمع العربي وشل نشاط مثقفيه ، ومنعهم من التعبير عن انفسهم ، وحرمانه من حق اقامة تنظيم سياسي عربي واحد في البلاد ، يمثل مصالحهم ويتكلم باسمهم ، ام انها تتجسد في سياسة اصطناع العملاء وتقديمهم ممثلين عن العرب وارسالهم الى الخارج لتجميل سياسة السلطات في نظر الرأي العام العالمي ، وافساد الذمم والضمائر في سبيل ذلك !؟ ان في النتائج التي يتوصل اليها الباحثان الاجتماعيان الشيء الكثير من التجني على الحقيقة، وان من حق العرب في اسرائيل ان يحقدوا على السلطات الاسرائيلية ليس لانها تعمل على تطوير مجتمعهم ، بل بالعكس ، لانها تقف حجر عثرة في سبيل هذا التقدم ، ثم تبدو امام العالم وكأنها تذرف الدموع اشفاقا على ضحاياها .

ويزعم صاحبا البحث ايضا ان ثمة عاملا آخر يؤثر على صياغة هوية العربي في اسرائيل وهو ان الصراع بين دولة اسرائيل والدول العربية ، علاوة على كونه صراعا بين حركتين قوميتين تدعيان نفس البلاد، فانه صراع ايضا بين دولة مؤيدة للغرب ، ودول تنحاز اكثر واكثر الى الكتلة الشرقية ، وما يستتبع ذلك من تأثر بأنظمة المعسكرين السياسية والاجتماعية . وهكذا فان انماط التطور التي تعرضها اسرائيل مغايرة لتلك التي تعرضها الدول العربية ، ومن وجهة النظر هذه يقف العرب في اسرائيل في منتصف الطريق بين النمطين . ان هذه النظرة لا تؤثر في اعتقادنا ابدا على هوية العربي في اسرائيل ، بل انها تزيد من تأييد الانسان العربي للمعسكر الاشتراكي نظرا للمساعدات التي يقدمها للعرب ، وخصوصا وان العرب يعرفون ان الدول الاستعمارية الغربية عندما ساعدت الصهيونيين على امتلاك فلسطين لم يكن لتلك الدول العربية اية علاقات مع دول المعسكر الاشتراكي . ان الباحثين يريدان ان يثبتا في عقول القراء ، وخصوصا الاجانب منهم في الغرب ، حقيقة كون اسرائيل النمط الغربي للحياة حتى تستدر عطفه ليستمر في دعمها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا كي تتمكن حسب زعمها من اقامة سد امام « الغزو العربي البربري » من جهة وامام « النفوذ السوفييتي » من جهة اخرى . ويبدو لاول وهلة ان التوتر في عملية الاستقطاب الانتمائي (اسرائيلي — عربي) الناتج عن التجاذب بين مركزي الاستقطاب امر غير محتمل . ولكن حقيقة ان العرب في اسرائيل قد عاشوا مع هذا الصراع سنوات عديدة تقود الباحث للنظر في الطريقة (الميكانيك) التي مكنت قطبي الجذب من التعايش، والتي ابقت للعربي في اسرائيل المقدرة على العمل بشكل طبيعي ، اكثر او اقل ، على المستويين البسيكولوجي والاجتماعي . يظهر بان الطريقة التي اتبعها العرب في هذا المجال كانت تقسيم الولاء الانتمائي الى اقصى حد يمكن معه الفصل بين المستوى العقائدي القومي من جهة وبين المستوى العملي الفردي من جهة اخرى . ويمكن تعريف الفكرة على المستوى الاول بانها تتماثل مع المثل العليا ومع تقييم الواقع من وجهة نظر المجتمع العربي ككل ، وفي هذا المستوى تبرز القومية العربية القوة الاكثر فعالية وتأثيرا . وفي المقابل فان المستوى الثاني يبحث في اصول المعيشة اليومية والميزان الذي يعتمده العربي في هذا المستوى لتقييم الاشياء يقوم على مصلحة الفرد الذاتية . ويبدو التأثير الاسرائيلي على هذا